ماهر شرف الدين

الجانب الصامت من المأساة



٤

الجانب الصامت من المأساة

ماهر شرف الدين

الجانب الصامت من المأساة

سياسة

الطبعة الأولى، 2021

منشورات ماهر شرف الدين

ISBN: 978-0-9995375-5-8

هذا الكتاب

على أطراف المآسي الكبرى، غالباً ما تتشكَّل مآسٍ صغيرةٌ لا يلحظها الناس، أو بالأحرى لا تأخذ حيِّزاً كافياً من اهتمامهم بسبب انشغالهم المحموم بمتابعة ما يجري في مركز المأساة الأساسية.

وقد حدثَ أن تشكَّلت، على أطراف المأساة السورية، مآسٍ صغيرةٌ لا تُحصى، لم يستطع قلمي، الذي تابع الثورة لحظةً بلحظةٍ، ألَّا يتوقَّف عند بعضها.

ولا أخفي بأنني، أثناء تناولها كتابةً ونشراً في الصحافة، كنتُ على إدراك تامّ بأنني أعمل على كتابٍ ذي طبيعة خاصَّة يحاول تغليب الجانب الإنسانيّ على الجانب السياسيّ، أو بالأحرى تخليص المأساة من مادَّتها السياسية والإبقاء على المادَّة الإنسانية فيها.

لذا يمكن القول إنَّ هذا العمل هو محاولة لإفساح المجال للجانب الصامت من المأساة لكي يأخذ حقَّه في الكلام، أو على الأقل لكي تُتاح له الفرصة لجمع أجزائه المتناثرة بين دفَّتَيْ كتابٍ.

مرض الاعتياد:
جثث في المشرحة

الخبر الذي نشرته «وكالة سمارت» عن قيام إدارة المشفى الوطني في مدينة حماة بإرسال ثلاث جثثٍ تظهر عليها آثار تعذيب إلى طلاب كلِّية الطبِّ البشريِّ لاستخدامها في دروس مادَّة التشريح... لم يعد خبراً استثنائياً في الجريمة والرعب حين يكون الحديث عن سوريا اليوم.

قبل هذا الخبر قرأنا منشوراً، لشدَّة قسوته بدا غيرَ قابلٍ للتصديق، عن طالبة طبٍّ سوريَّة فقدتْ وعيها -وربَّما عقلها- حين فوجئت بجثَّة أخيها المعتقل ممدَّدةً أمامها على طاولة التشريح!

وخبرٌ ثالثٌ، قبل هذَيْن، عن استعمال الجلَّادين السوريين للبطاقات الشخصية لضحاياهم الذين قضوا تعذيباً على أيديهم!

أخبارٌ وحشيةٌ صار الواحدُ منَّا يقرأ أحدها، ثمّ ينتقل -بتلقائيةِ المستسلم- لقراءة الخبر الذي يلي.

صرنا نتصفَّح أخبار الأهوال في بلادنا كما نتصفَّح كتاباً ألَّفه

الآخرون عن حياتنا.

لم تصبح الجريمة وحدَها مفردةً عاديةً في قاموس حياتنا اليومي كسوريين، بل صار التفنُّن في الجريمة شيئاً عادياً أيضاً.

كان خبر اعتقال إنسانٍ يثير فينا كلَّ مشاعر الغضب. كان خبر إطلاق الرصاص على متظاهر أعزل يُخرجنا عن طورنا. كان كلُّ ما يمسُّ عيوننا وأسماعنا يمسُّ إنسانيتنا وردود أفعالنا.

ولكنْ مع توالي الجرائم والكوارث، ومع تعاقب الزمن والدم، ومع مرور الوقت وتجاهل العالم... تمَّ تشويه الجزء الأكثر فاعلية في إنسانيتنا. تمَّ تكسير العظام في ردود أفعالنا حتى غدت مجرَّد أشكال عديمة الفائدة من الرخويات.

والمخيف أنَّ الطريقة التي تمَّ فيها تدمير قدرتنا على ردِّ الفعل... لا تقلُّ وحشيةً عن الطريقة التي تمَّ فيها تدمير مدننا وقُرانا.

عطَّلوا حواسنا بالرعب: رائحةُ الدم عطَّلت حاسَّة الشمِّ، وأصواتُ القصف عطَّلت حاسَّة السمع، ومشاهد الأنقاض عطَّلت حاسَّة البصر، وكثافة طعم المرارة عطَّلت حاسَّة الذوق، أما حاسَّة اللمس فتكفَّل في تعطيلها الغيابُ.

لقد جعلونا نعتاد. فاعتدنا على كلِّ أنواع الجنون التي حكمت مصائرنا. اعتدنا على أن يكون موتنا عجيباً كحياتنا. اعتدنا على

أن تكون أجسادنا طعاماً لأسماك البحار التي غرقنا فيها إبَّان رحلة لجوئنا. اعتدنا على أن تكون قبورَنا سطوحُ بيوتنا التي كنَّا نسهر فوقها.

مرضُ الاعتياد الذي أصابنا كشعبٍ منكوبٍ، أصابَ قدرتنا على فهم ما يجري حولنا، وأصابَ جهازنا العصبيَّ بالعطب، ومدَّدَنا على الطاولة ذاتها، إلى جانب الجثث التي عليها آثار تعذيب، والتي أمروا طلبةَ الطبِّ بالتمرُّن على تشريحها.

موقع «زمان الوصل»، **8** تشرين الثاني **2018**

الدبُّ السوري

لم أكن أعلم بوجود دبٍّ سوريٍّ حتى شاهدتُ صورتَه في نشرات الأخبار. كان مضرَّجاً بدمائه بين أيدي حرس الحدود العراقية الذين قاموا بقتله وهو في سباته. قتلوه وهو نائم. حاله حال الكثير من بشر هذه البلاد الذين قُتلوا وهم نيام.

يقول الخبر إن هذا الدبَّ يحمل اسم «الدبّ البنيّ السوري»،



ويُعدّ من أندر سلالات الدببة في العالم، ولفترةٍ طويلة سادَ الاعتقاد بأنه قد انقرض.

يقول الخبر إن هذا الدبَّ هربَ إلى منطقة الحدود بسبب المعارك الدائرة بين «داعش» و«قسد»، ودخل في حالة السبات قبل أن يعثر عليه الجنود ويقتلوه.

يقول الخبر إن هذا الدبّ من النوع المسالم، وإن هذه الفترة من السنة هي فترة سباته.

وأنا أشاهد صور الدبِّ السوريِّ المقتول، بين مسلَّحين مبتسمين وفخورين بغدرهم، شعرتُ للحظةٍ بأن دمَ هذا الدبِّ هو دمُ إنسان. شعرتُ بأن جراحه جراح إنسان. بأن نظرة عينَيْه وهو ميِّت نظرةُ إنسانٍ مات وهو على وشك أن يقول شيئاً.

فكَّرتُ بأن هذا الدبَّ المسكين سوريٌّ حقاً، وبأن اسمه ليس اسماً علمياً فحسب، بل هو اسمٌ استحقَّه اليوم بدمه أيضاً.

فكَّرتُ بأن هذا الدبَّ السوريَّ الذي هرب من وحشية المعارك ليرقد في سباته، لم يسلم في هروبه وفي سباته. كأنَّ هذه الأرض قد فاضت بلعنتها على كلِّ من يمشي فوقها، سواء أكان إنساناً أم حيواناً أم حجراً.

منذ سنوات، لم يُذكَر اسم الدبِّ في نشرات الأخبار إلا كمجرم

حربٍ يقصف بطائراته البيوت والمدن. منذ سنوات و«الدبّ الروسي» يُروِّع أهل هذه البلاد حتى ارتبط اسم الدبِّ بالقَتَلة والسفَّاحين.

قلتُ في نفسي: سأكتبُ مقالاً في رثاء الدبِّ السوري العاثر الحظّ كبلاده. قلتُ في نفسي: وما الضير من البكاء لمصير حيوان لم تترك له مصائرُ البشر مساحةً للتعاطف أو الحزن؟ قلتُ في نفسي: سأحزن على هذا الدبِّ وسأرثيه كما لو أنه إنسان.

***

كان ياما كان «دبٌّ روسيٌّ» عدوانيٌّ استباح البلاد المسمَّاة سوريا. وحين ظهرَ الدبُّ السوريُّ المسكين -الذي قال العلماء بأنه من النوع المسالم- ظهرَ مضرَّجاً بدمائه بين جنود أوغاد قتلوه وهو نائم... وكادت عيناه المطفأتان أن تذرفا الدمع.

موقع «زمان الوصل»، **5** تشرين الثاني **2018**

تفكيك سكَّة الحديد

حين رأيتُ الصورة المنشورة لآثار سكَّة الحديد التي قامت «جبهة النصرة» بتفكيكها في شمال سوريا، فكَّرتُ بأنها صورة تعبيرية أكثر من كونها صورةً حقيقيةً. فكَّرتُ بأن النظام سرق القطار، والتطرُّف سرق السكَّة. وتاه السوريون في البراري دون أمل في النجاة.



ما استطاع السوريون الحصول عليه بعد الثورة كان مجرَّد سكَّة يمكنهم صنع قطار جديد لها. اليوم حتى السكَّة سُرقت، وبيعت كخردةٍ. وكأنَّ هناك من يقول للسوري: لم يفُتْكَ القطار فحسب، بل إنَّ السكَّة لم تعد موجودة أصلاً.

إنَّ الجانب التعبيري في تلك الصورة يحمل من القسوة ما يكفي لجعل السوري يتألَّم وهو ينظر إليها. إنها مجزرة تعبيرية لمستقبل سوريا. مجزرة تعبيرية لأملنا في الوصول إلى أي مكان سوى المكان المرعب الذي نقف فيه اليوم.

ربما يقول قائل إنَّ صورةً كهذه لا تساوي شيئاً أمام الصور المليئة بالأنقاض والأشلاء والدموع. ربما يقول قائل إنَّ صورة أثرِ الحديدِ على التراب ليست مؤلمةً مثل صورة أثرِ الدمِ على التراب.

لكنَّ المتأمِّل في النهج التدميري الذي تمارسه «جبهة النصرة» وأمثالها من فصائل التطرُّف في بلادنا، سيدرك سريعاً بأن الآثار على التراب ليست آثار سكَّة حديد مسروقة بل آثار مستقبل مسروق. ليست آثار قضبان منزوعة بل آثار أملٍ تمَّ سحله، وهذه الخطوط الترابية المتوازية هي من آثار السحل.

لقد اخترع النظام خصوماً من طينته وعلى شاكلته. اخترع الخصم المنقذ الذي يستطيع -لشدَّة سواده- تبرير بقاء النظام.

اخترع الخصم الذي خمَّره في سجونه لاستعماله عند الحاجة. وقد جاءت «جبهة النصرة»، بما تمثِّله من وجهٍ آخرَ للاستبداد، وكأفتك تلك المنتجات وأكثرها سُمِّيةً، لاستكمال تنفيذ الجريمة الكبرى في القضاء على الوجه المدنيِّ للثورة السورية العظيمة.

لذلك، فإنَّ استئناف الثورة ضدَّ التطرُّف لن يكون إلا استكمالاً للثورة ضدَّ الاستبداد.

ولذلك يجب نزع الغشاوة عن أعين جميع المخدوعين من أبناء شعبنا الذين تعلَّق بعضهم بقشَّة التطرُّف ظنَّاً منهم بأنها سفينة النجاة... غير متنبِّهين إلى هذا التكامل الرهيب في الأدوار التخريبية بين نظام الأسد و«جبهة النصرة»، بين الاستبداد والتطرُّف، بين سارقي القطار وسارقي السكَّة.

موقع «زمان الوصل»، **6** كانون الأوَّل **2018**

ثلوج الأشقاء

على جدار موقع «فيسبوك»، تمرُّ صورةٌ بهيجةٌ لعائلة سورية لاجئة في كندا وهي تتصوَّر وسط الثلج، تليها مباشرةً صورةٌ مأساويةٌ نشرها أحد الأصدقاء لمخيّم عرسال للاجئين السوريين في لبنان وهو يغرق تحت العاصفة الثلجية المسمَّاة «نورما».



إنَّ ورود كلمة «ثلج» في المنشورين أوحى لـ«الذكاء الاصطناعي» لموقع التواصل الاجتماعي الشهير أن يعرضهما بالتتالي على اعتبار أنهما يتحدَّثان عن «مناسبة» واحدة. تماماً كما يحدث عندما يقوم الموقع بعرض منشورات وصور، تتحدَّث عن «ثيمة» واحدة، وراء بعضها بعضاً.

كان المشترك بين الصورتَيْن موجوداً: الثلج واللاجئون السوريون.

لكنَّ الفارق بينهما كان أكبر بكثير من أن تغطِّيه عاصفة ثلجية: حضور القيم الإنسانية في صورة، وغيابها الكامل في صورة ثانية.

بالطبع لا يمكننا أن نلوم «الذكاء الاصطناعي» لأنه لم يلتقط الفرق بين صورة ثلجية وأخرى. لا يمكننا تقريعه على عدم معرفته بكمِّ القهر الذي يغطيه الثلج في صورة المخيَّم. بل لا يمكننا حتى أن نشرح له ما هو الفرق بين أن تكون لاجئاً في كندا وأن تكون لاجئاً في لبنان.

في بلدة عرسال الجبلية يعيش أكثر من 36 ألف لاجئ سوري في خيام هشَّة انهارَ معظمها بسبب تساقط الثلج الذي بلغت سماكته متراً.

مترٌ من الثلج أُضيفتْ فوقه أمتارٌ من اللامبالاة التي ليست إلا

اسماً باهتاً من أسماء العنصرية.

لا أفهم كيف يمكن لأيٍّ إنسان -فما بالك بالذين نُسمِّيهم «أشقاء»- أن يحوِّل بؤس الأطفال في مخيَّمات البرد إلى مادَّةٍ للسجال حول «الخطر الديموغرافي»! لا أفهم كيف يمكن تحويل مأساة إنسانية بهذا الحجم إلى تفاهة سياسية استعراضية على الشاشات الصفراء.

إنَّ الغياب المفزع لكلِّ القيم الإنسانية في البلاد العربية عموماً، والمجاورة لسوريا خصوصاً، يجعل الثلج يصل إلينا -نحن الآمنين خارج المخيَّمات- ليطمرنا ويملأ قلوبنا صقيعاً.

فما جعل الثلجَ الكنديَّ دافئاً وجديراً بالصور السعيدة، وما جعل الثلجَ اللبنانيَّ بارداً وقاتلاً للأطفال هو حضور القيم الإنسانية وغيابها.

الثلج في صورة اللاجئين السوريين في كندا هو الثلج ذاته في صورة اللاجئين السوريين في لبنان. ما اختلف هو الإنسان، والإنسان فقط.

موقع «زمان الوصل»، **10** كانون الثاني **2019**

حكاية سندس فتح اللّه

في المخيَّم الأسوأ في القرن الحادي والعشرين، أشعلتْ نازحةٌ سوريةٌ النار بنفسها.

في مخيَّم الركبان الواقع على الحدود السورية الأردنية، وبعد ثلاثة أيام من تضوُّرها جوعاً هي وأطفالها الثلاثة، قرَّرت سندس فتح الله أن تحرق جسدها، وأن تحرق عمرها، وأن تحرق ما تبقَّى من قصَّتها.



في المخيَّم العالق على الحدود الفاصلة بين الدول، والعالق على الحدود الفاصلة بين الإنسانية والتوحُّش، احتضنت سندس فتح الله رضيعها الذي عجز جسدها النحيل والواهن عن إرضاعه، وتركت للنار أن تتابع طريقها.

لم يكن لدى هذه المرأة «تَرَف» التونسي محمد بوعزيزي الذي امتلك نصف ليتر من البنزين لإشعال نفسه. لم يكن لديها سوى بضعة أعواد من الثقاب استخدمت معظمها في تدفئة أصابع أطفالها التي تجمَّدتْ من شدَّة البرد.

سندس فتح الله، ابنة مدينة تدمر التي حكمتها امرأةٌ قيل إنها انتحرت بالسمِّ، أرادت أن تفتح كوَّةً صغيرةً لتهرب عبرها من الجحيم المسمَّى «مخيَّم الركبان».

كان فتح الكوَّة في القماش الرقيق للخيمة أصعب بكثير من فتح الكوَّة في جدار من الإسمنت المسلَّح. كان قماش الخيمة، الذي يحمل شعارات المنظَّمات الأُممية، أقسى بكثيرٍ من أيِّ جدار شيَّده إنسان على وجه الأرض.

سندس فتح الله ليست امرأة انتحرت، بل امرأة جرَّبت أن تقول بجسدها ما عجزت عن قوله بلسانها. ما بقيَ منها لم يكن جسداً متفحِّماً، بل كلمات لا تصمد أمامها كلُّ كلماتنا الكبيرة

والجوفاء.

إنَّ النار التي التهمت خيمة سندس يجب أن تلتهم مخيَّم الركبان بأكمله بعد إخلائه من الناس. فهذا المخيَّم ليس عار الأسد فحسب، أو عار الأردن فحسب. بل إنه ليس عار السياسة وحدها، بل عار الإنسانية جمعاء.

الستُّون ألفاً المحاصرون في جحيم الركبان، نقصوا امرأةً وطفلاً رضيعاً. ونحن نقصنا ونقصنا حتى صرنا نخشى من أن نقف أمام المرآة فلا نرى أنفسنا. لقد نقصنا حتى صرنا نخشى من أن نتحوَّل إلى غبارٍ تحمله العاصفة التالية الذاهبة إلى مخيَّم الركبان.

موقع «زمان الوصل»، **17** كانون الثاني **2019**

حكاية الطفل أحمد الزعبي

البيان الذي أصدرته بلدية بيروت حول مقتل الطفل السوري أحمد الزعبي، أكمل فصول المأساة.

***

للمساعدة في إعالة أُسرته اللاجئة في لبنان، عمل الطفل أحمد الزعبي (14 عاماً) ماسحاً للأحذية على أرصفة بيروت. وقد شكى لأهله، أكثر من مرَّة، قيام شرطة البلدية بضربه وتكسير عدَّته البسيطة.

وحين فُقِدَ أحمد يوم 15 كانون الثاني 2019 بدأت العائلة عملية بحثها عنه في المستشفيات والمخافر، إلى أن استرشدت إلى مكانه بعد ثلاثة أيام، بواسطة كاميرا مراقبة كشفت عن مطاردة عناصر شرطة البلدية له. وقد وُجدتْ جثَّة هذا الطفل متفسِّخة في مَنْوَر (فتحة التهوئة) بنايةٍ سقط فيه أثناء هربه من الدورية.

البيان الذي أصدرته البلدية لم يكتفِ بوصف الزعبي بـ«الشاب» للتخفيف من هول الجريمة، بل -ولتبرير مطاردة الشرطة له لمسافة

طويلة والتسبُّب بسقوطه وموته- اتهمه أيضاً بـ«سرقة صناديق الزكاة والصَّدَقات الموضوعة قرب فندق البريستول»! هذه التهمة التي ثبتَ زورها وكذبها من خلال شهادة المسؤول عن تلك الصناديق والذي كذَّب رواية البلدية عن وجود شكوى سرقة سابقة بحقِّ الطفل المغدور.

زملاء الشرطيين الذين تسبَّبوا بمقتل الطفل، أكملوا المهمَّة بمنع أسرته من تصوير الجثة أثناء سحبها من مَنْور البناية. وبلدية بيروت حاولت تجاهل الجريمة، كما لو أنها لم تحصل، إلى أن فاضت صفحات التواصل الاجتماعي بتفاصيل ما حدث، فاضطرَّت للخروج ببيانٍ، لا يُضاهى في السفالة، حوَّلت فيه الطفل الضحية إلى «شابّ» و«سارق»، وركَّزت فيه على صفة «ماسح الأحذية» في تكرار مفضوح يشير إلى محاولة التقليل من القيمة الإنسانية للضحية، واختتمته بخردةٍ من كلمات التعاطف الرثَّة.

***

في مطلع بيانها المذكور تقول البلدية: «أثناء قيام دورية بمهمَّة منع المتسوِّلين وماسحي الأحذية من التجوُّل في شوارع بيروت... إلخ».

لقد استوقفتني هذه الجملة تحديداً لأنها صدرتْ عن جهة

رسمية في بلدٍ حكَّامه ليسوا أكثر من متسوِّلين وماسحي أحذية لحكَّام الخليج ودول الغرب وإيران. وقد كانوا، قبلاً، ماسحي أحذية لضبَّاط الأسد أنفسهم الذين قاموا بتهجير الطفل أحمد الزعبي وعائلته إلى لبنان.

لقد استوقفتني هذه الجملة تحديداً لأنها صدرت عن ماسحي الأحذية الحقيقيين وهم يجتمعون لاغتيال «ماسح الأحذية» المزيَّف.

***

مات أحمد الزعبي طفلاً بريئاً لم يعرف من الحياة إلَّا رصيفها. مات هارباً بصندوق البويا الذي حاول به تلميع الأشياء من حوله بينما هو يُلمّع أحذية المارَّة.مع ذلك أنهى حياته بطلاً، ككلِّ الضحايا الذين يتحوَّلون أبطالاً بفضل قوَّة المأساة التي عاشوها.

مات أحمد الزعبي طفلاً بطلاً حاول ماسحو الأحذية الحقيقيون تلويث موته التراجيدي باتِّهامه بسرقة صناديق زكاةٍ يبدو بأن الفقراء أمثاله لا يستحقُّونها.

مات أحمد الزعبي في مَنْورٍ مظلم لبناية لا يعرف فيها أحداً، مع صندوقه وفرشاته التي مسح بها في ٍحياته أحذيةَ المارَّة، ومسح بها في موته وجوهَنا الغبراء.

موقع «زمان الوصل»، **24** كانون الثاني **2019**

شقوق الكمأ والدم

سبعة أشخاص من عائلة واحدة انفجر بهم لغمٌ أرضيٌّ، وهم يبحثون عن الكَمَأ في بادية البوكمال شرقي دير الزور، وهم الآن بين قتيل وجريح.

وكأنما دمُ السوريِّ صار مكافئاً للقمته.

***

في سنوات الثورة الأولى شاعت مجازر الخبز.

كانت سنة 2012 سنةَ ذلك النوع الغريب من المجازر، حيث تمَّ توثيق أكثر من ثلاثين استهدافاً للمخابز من قبل النظام، نجمَ عنها أكثر من ثلاثمئة قتيل وألف جريح، بينهم ما يناهز الستِّين طفلاً.

الموتُ الذي طالبه الشاعر الفلسطيني محمود درويش بأن يكون «صيَّاداً شريفاً لا يصيد الظبيَ قرب النبع»، لم يصطدْ في سوريا إلا الظباء العطشانة لحظةَ ورودها الينابيع. لقد تفنَّن الموت، الذي ركبَ طائرات النظام الحربية، في اصطياد الناس وهم يقفون في الطوابير أمام أفران الخبز.

كانون الأول 2012، وبفاصلٍ زمنيٍّ لا يتعدَّى اليوم الواحد، حدثت مجزرتان رهيبتان أمام الأفران: مجزرة فرن حلفايا في ريف حماة ومجزرة فرن تلبيسة في ريف حمص.

كانت مجزرة فرن حلفايا الأكثر دموية في سلسلة مجازر الخبز، بسبب ازدحام الأهالي أمام الفرن بعد انقطاع الخبز لأيام عديدة، فاستغلَّ نظام الأسد ذلك الازدحام ليرسل طائرة «سوخوي 22» قصفت تجمُّع الناس بشكل مباشر حوَّل العشرات منهم إلى أشلاء تطاير بعضها إلى مسافة مئتَيْ متر عن مكان المجزرة. والضجَّة الإعلامية التي أعقبت هذه المجزرة لم تردع النظام عن تنفيذ مجزرة ثانية، في اليوم التالي، أمام فرن مدينة تلبيسة ذهب ضحيتها العشرات أيضاً بين قتيل وجريح.

من فرن البصيرة في ريف دير الزور، إلى فرن داريا في ريف دمشق، إلى فرن قاضي عسكر في حلب، إلى فرن كفر عويد في ريف إدلب... بدا كأنَّ الخبز قد صدَّق المثل الشعبي الذي يقول بأنَّ «اللقمة مُغمَّسة بالدم».

بل إنَّ تلك اللقمة جرى تغميسها بالسمِّ أيضاً، يومَ أدخل النظام كمِّيةً كبيرةً من أرغفة الخبز المسمَّم إلى قلعة الحصن في حمص أودت بحياة شخصَيْن من بين 45 حالة تسمُّم سجَّلها المشفى الميداني

يومذاك، بحسب «الشبكة السورية لحقوق الإنسان».

***

ومن مجازر الأفران إلى مجازر أسواق الهال. من الخبز الـمُدمَّى إلى الخضار والفواكه الـمُدمَّاة: مجزرة سوق الهال في الباب (تموز 2015)، مجزرة سوق الهال في معرة مصرين (آب 2016)، مجزرة سوق الهال في أريحا (كانون الثاني 2018)...

صار الموت ينتظر السوريَّ على باب الفرن، وفي سوق الهال، وحتى في البراري إذا خرج بحثاً عن الكَمَأ.

حين قرأتُ خبر عائلة عزيز المطشر التي خرجت تبحث عن الكمأ وانفجر بأفرادها لغمٌ أرضيٌّ تركهم بين قتيل وجريح، تذكَّرتُ خروج عائلتي في تسعينيات القرن الفائت إلى البادية المحيطة بمدينة الشدَّادي، التي تتوسَّط الطريق بين الحسكة ودير الزور، لاستخراج الكمأ من الأرض.

تذكَّرتُ كيف كنَّا نستدلُّ على وجود الكمأة بشقٍّ صغيرٍ في الأرض، فنحفر تحته بسكاكيننا، لسنتمترات قليلة، مبتهجين بإخراج ثمرةٍ تُشبه حبَّة البطاطا الصغيرة، لكنَّ طعمها لا يُشبهه طعمٌ في الدنيا.

تخيَّلتُ نفسي في تلك البراري، مجدَّداً، برحلةٍ عائليةٍ لاستخراج

الكمأ، مسترشداً بتلك الشقوق الصغيرة في الأرض، والتي تحوَّلتْ، بقوَّة الحنين والمأساة، إلى ندوب في الذاكرة.

تخيَّلتُ نفسي أغرزُ سكِّينتي في تلك الشقوق، وبدلاً من خروج الكمأ المطمور الذي تعقبه صرخات الابتهاج... امتلأت الشقوق بالدم.

موقع «زمان الوصل»، **18** شباط **2019**

الاعتذار من ساسوكي

قدَّم تلفزيون النظام (الـمُسمَّى «قناة السورية») اعتذاراً شديد اللهجة للسوريين بسبب مرور لقطةٍ في مسلسل الكرتون الشهير «ساسوكي»، ظهرَ فيها صدرٌ عارٍ لإحدى الفتيات الكرتونيات.

لم يعتذر تلفزيون النظام عن مشاهد تجريف جثث سوريين بالجرَّافات التي سبق أن بثَّها متفاخراً، ولا عن لقاء إحدى مراسلاته لمواطنين جرحى وهم يُحتضرون في الشوارع والتحقيق معهم، ولا



عن كلِّ مشاهد التهجير والقهر والعار التي بثَّها طوال السنوات الفائتة... لكنه اعتذر اليوم عن مشهد بريء مرَّ في مسلسل كرتوني!

والحقّ أنَّ هذا التصرُّف ليس عابراً في سلوك النظام، إنما هو نهجٌ سارَ عليه منذ أن تسنَّم السلطة في سوريا. فحافظ الأسد لم يعتذر، مثلاً، عن تدمير مدينة حماة ومجزرة الأربعين ألف مدني، لكنه اعتذر عن قيام مظلِّيات شقيقه رفعت الأسد بمضايقة المحجَّبات.

إنَّ هذا المنطق، المخادع والسهل، هو الذي يسمح لنا ببناء تفسيرٍ منطقيٍّ لظاهرة ازدهار بناء الجوامع والمعاهد الشرعية في بلدٍ تحكمه زمرة من الكارهين للإسلام.

***

بيان الاعتذار الرسمي، الذي وصفَ تلك اللقطة الكرتونية بـ«المشهد المسيء» و«الخطأ الفادح»، وأرعدَ وأزبدَ متوعِّداً ثلاثةً من العاملين في قسم «رقابة البرامج»، يصدر عن إعلام بلدٍ اعترفت فيه «نقابة الفنانين» بإصدار بطاقات خاصة للعاملات في مجال السياحة الجنسية. يصدر عن إعلام بلدٍ بات فيه قطاع الدعارة أكبر قطاعات «الاقتصاد». بل يصدر عن إعلام هو نفسه قد أنتج الكثير من المسلسلات التلفزيونية المبتذلة، والمحشوَّة حشواً بمشاهد الجنس، بما يمنع أيَّ عائلة سورية -ومهما كانت درجة انفتاحها- من الاجتماع

سويةً لمتابعة تلك المسلسلات.

***

لقد حزَّ في نفسي، أنا الذي ينتمي إلى جيلٍ لوَّنَ ساسوكي طفولتَه بألوان قوس القزح الذي كان يتزحلق عليه، أن أقرأ بياناً من عصابة إجرامية تتهمه هو وصديقته الجميلة بالإساءة والإباحية. عصابة أكثر شرَّاً بكثير من العصابات التي كان ساسوكي يحاربها وينتصر عليها.

لقد حزَّ في نفسي أن أرى ساسوكي محاطاً بحلقةٍ من الأوغاد دون أن يستطيع أن يقول تعويذته الشهيرة «فن النينجا أُنْ بَدَرُنْ»، قبل أن يبدأ بتمزيقهم بسيفه البتَّار.

موقع «زمان الوصل»، **23** نيسان **2019**

التوحُّش المحض

من على متن طائرته الحربية، يقوم الطيَّار مجد بركات بعرض إعلان تجاري (بهارات وحبوب) قبيل قيامه بالقصف.

يُقدّم هذا الطيَّار، الذي ينحدر من ريف القرداحة، مسقط رأس



مؤسِّس النظام، نموذجاً فذّاً للتوحُّش.

إنه، عن سبق إصرار، يريد لقصف المدنيين أن يكون «نكتة مهضومة». يريد لقتل الناس أن يكون فكاهة لغيرهم. يريد لصرخات المذعورين على الأرض أن تتحوَّل إلى ضحكات للذين يشاهدون الفيديو الذي سجَّله بهاتفه النقَّال.

***

تأخذ المأساة منحىً آخر حين يُراد لها أن تكون ملهاةً. الجريمة كذلك تكفُّ عن كونها جريمةً عاديةً حين يُراد لها أن تكون منصَّةً لدعاية تجارية.

إنَّ التوحُّش في هذه الحالة يغدو توحُّشاً صافياً محضاً، بمعنى أنه لا يحتوي في مركَّباته على ما يُبرِّره.

فالتوحُّش هاهنا ليس ردّ فعل. وأيضاً، ليس فيه عنصر الغضب لنقول إنه انتقام وثأر. كما أنه لا يستند إلى نظرية فاشية تقوم بدعمه وتبريره.

إنْ هوَ إلا توحُّشٌ بغرضِ التوحُّش.

فعلى سبيل المثال، كان الأمر سيبدو مختلفاً لو أنَّ ما حمله الطيَّار في يده وقام بتصويره كان صورة زميل له (أو صديق أو قريب) قد قُتِلَ، ويريد الطيَّار الثأر له ممن يعتبرهم مسؤولين عن مقتله.

فالتوحُّش في هذه الحالة سيحمل في عناصره ما يُبرِّره، أو بالأحرى ما يُفسِّره.

وكان الأمر سيبدو مختلفاً لو أنَّ ما حمله الطيَّار في يده كان عَلَماً أو رمزاً يقاتل تحت لوائه، أو عبارة أيديولوجية متطرِّفة، سياسية أو دينية على السواء، تُبيح قتل الذين أقلعت الطائرة لقصفهم.

لكنَّ أياً من تلك الافتراضات لم يكن موجوداً. وما كان موجوداً فقط هو التوحُّش المحض... أو التوحُّش الصافي إلى درجة أنك، ولشدَّة صفائه، تستطيع أن ترى من خلاله قعرَ الإنسان.

موقع «زمان الوصل»، **7** أيَّار **2019**

صحون الشهداء

كلَّما رأيتُ صورةَ طعامٍ قضى أصحابه قبل أن يتناولوه، عادت بي الذاكرة، سنواتٍ وسنواتٍ، إلى تلك الأمِّ المفجوعة التي قضى ولدها بحادث سير، وكان محور رثائها له يدور حول أنه قد مات وهو جائع.

كان السامع لتلك الأمِّ يكاد يظنُّ بأنَّ الفاجعة ليست في موت الولد بحادثٍ، بل في كونه قد مات جائعاً.

للحظةٍ اعتقدتُ، وأنا أسمع كلماتها يومذاك، بأنَّ الحادث لو تمَّ



بعد فترة الغداء كان سيكون أقلّ ألماً. وبأنَّ المعدة الفارغة مع الموت تمنح الفجيعة قسوةً مضاعفةً.

***

هذه الذكرى القديمة طالما استدعتها صورٌ جديدةٌ، ملأت وسائل الإعلام، منذ أن اتَّخذ النظام في سوريا من أسلوب قصف المدنيين منهجاً.

الصحون المليئة بالطعام وغبار القصف، مليئةٌ أيضاً بفكرة الغياب. غياب من ماتوا وهم جوعى. غياب من أعدّوا المائدة لأنفسهم دون علمهم بأنهم قد أعدّوها للكاميرات ونشرات الأخبار.

في صورةٍ، تكون المائدة فقيرةً جداً (زعتر وزيت وشاي) إلى درجة أنَّ الفقر والموت فيها يتسابقان لارتداء عباءة الغبار، أو «يتعاوران مُلاءةَ الـحُضْر» بالتعبير البديع للخنساء.

وفي صورةٍ، تكون المائدة «عاطفيةً» جداً (ورق عريش) إلى درجة أنَّ الأصابع النسائية التي لفَّت تلك اللفافات من ورق العنب تكاد تكون مرئيةً.

لوهلةٍ، تفكِّر في أن تمدَّ يدك لتمسح الغبار عن الصحون في الصورة.

ولوهلةٍ، تتخيَّل أطيافَ الغائبين وهم يتحلَّقون حول المائدة، مُسمِّين «بسم الله» قبل الشروع في تناول الطعام.

ولو طُلِبَ من أحدٍ منَّا وضع عناوين لتلك الصور التي غطَّى فيها غبارُ القصف صحونَ الطعام، لكان أوَّل ما فكَّرنا فيه هو أنَّ أصحابها قد ماتوا وهم جوعى، وأنَّ صحونهم البسيطة تحوَّلت إلى أوعيةٍ للمأساة، وأنَّ الأمَّ وهي تُعدُّ المائدة بصمتٍ لم يكن ليخطر في بالها أنَّ لفافاتها، الجميلة والمتقنة الصنع، لن تكون صالحةً للأكل، وإنما للبكاء.

موقع «زمان الوصل»، **13** أيَّار **2019**

مستشفيات الجحيم

«لا يجوز بأيِّ حالٍ الهجوم على المستشفيات المدنية المنظَّمة لتقديم الرعاية للجرحى والمرضى والعجزة والنساء النفاس، وعلى أطراف النزاع احترامها وحمايتها في جميع الأوقات».

المادَّة 18، اتفاقية جنيف الرابعة، سنة 1949

المستشفيات والنقاط الطبِّية التي قامت «الأمم المتحدة» بتزويد روسيا ونظام الأسد بمواقعها، لكي يتمَّ تحييدها عن القصف، تمَّ



قصفها وتدميرها.

مستشفى كفرنبل تحوَّل إلى كتلةٍ من الجحيم، في صورةٍ لا يُصدِّق المرء أنَّ إنساناً متحضِّراً في القرن الحادي والعشرين يمكن أن يقبل بها.

مستشفيات أُخرى تمَّ تدميرها، بعدما هرب مرضاها ومصابوها، بثيابهم الزرقاء، حفاةً ومذعورين.

لا مراعاة لاتفاقيات دولية، أو توافقات إنسانية، أو حتى أعراف اجتماعية ودينية اشتهر بها المجتمع السوري.

***

ليس في الصورة المرفقة لون دم، لكنْ ثمَّة ما هو أفظع: مريض، بثياب المستشفى، يهيمُ على وجهه في الشوارع هرباً من القصف.

مشهدٌ ربَّما كان أكثر فظاعة من مشهد قصف المستشفى ذاته الذي هرب منه هذا المريض.

لمرَّة واحدة سيكون اللون الأزرق وحشياً إلى هذه الدرجة. لمرَّة واحدة سيكون منظر ثوبٍ عادي ونظيفٍ أكثر قسوةً من منظر ثوبٍ ملطَّخ بالدماء.

ولكنْ، كيف يمكن لثوب المستشفى، الذي يُعطي إحساساً بالأمان والطمأنينة، أن يبعث في أنفسنا كلَّ مشاعر الاضطراب

تلك، بمجرَّد نزوله إلى الطريق؟!

وكيف يمكن لكمَّامة المريض، التي وضعها لتنقية الهواء الداخل إلى رئتيه، أن تتحوَّل إلى كمَّامةٍ تخنق كلَّ من يراها، بمجرَّد وجودها في مكانٍ ليس مكانها؟!

إنَّ الفظاعة التي يمكن للعادي أن يُفرزها، حين يُوضَع في مكانٍ ليس مكانه، لا يقدر أشدُّ المشاهد عنفاً على إفرازها.

وقد بدَّلت آلةُ الحرب في سوريا، إلى درجة العبث، الكثيرَ من أمكنة الأشياء العادية حتى أنَّ بعضها اتَّخذ شكلاً وحشياً.

وبذلك لم يُطاول العبثُ الأشياءَ وحدها، بل طاول المعانيَ أيضاً.

موقع «زمان الوصل»، **17** أيَّار **2019**

جيل سيَّارات الزِّيل

لم تكد تهدأ الضجَّةُ الافتراضيةُ التي خلَّفها محمد رامي مخلوف بنشره صورةً له مع سيَّاراته الفارهة، والتي يُقدَّر ثمنها بملايين الدولارات، حتى خرجت علينا جريدة والده رامي مخلوف، أي جريدة «الوطن»، بخبرٍ عن قرب صدور قانون «من أين لك هذا؟» لملاحقة الفاسدين أصحاب الإثراء غير المشروع!



ولكنْ دعونا نتخيَّل حال أحد مؤيِّدي النظام، من المتابعين لمحمد رامي مخلوف ولجريدة «الوطن» في الوقت ذاته على مواقع التواصل الاجتماعي، حين تتوالى أمامه صورة مخلوف - الابن وسط سيَّارات «الفيراري»، ثمَّ خبر جريدة مخلوف - الأب عن قانون «من أين لك هذا؟»!

سيبدو ذلك فكاهةً سوداء بالنسبة إلى الشريحة التي لم يعرف شبَّانها سوى ركوب سيَّارات «الزِّيل» الروسية العسكرية وهي تنقلهم إلى جبهات القتال. سيبدو ذلك ازدراءً لعقول من صدَّقوا أنَّ المذبحة الجارية في سوريا كانت نتيجة مؤامرة حيكت ضدَّ «الرئيس الوطني»؛ الذي لم تردعه «وطنيَّته» عن السماح لأقاربه المباشرين بنهب البلد وإيصال الشعب إلى حافَّة المجاعة.

من نافل القول أننا لا نكتب هنا لمناقشة القانون المذكور الذي لن يكون أكثر من أداة «تشليح» لمن أثرى بعد الثورة -في سوق الفساد وتجارة الأزمات- ولم يتسنَّ للنظام مقاسمته الأرباح.

بل نكتب لرثاء أجيال سوريَّة كاملة تمَّ سحقها في الحرب، ليصعد على ركامها شبابٌ لصوصٌ وتافهون وإمَّعات.

أجيال سوريَّة تناهبتها القبورُ والخيامُ والمنافي، في سبيل أن تُضاء قصورٌ يسكنها من كان يجب أن يكون مسكنهم السجن.

أجيال سوريَّة لم تركب سوى سيَّارات «الزِّيل»، ليركب محمد رامي مخلوف سيَّارات «الفيراري».

موقع «زمان الوصل»، **5** آب **2019**

«أديداس» على كرسي متحرِّك

بعدما استُعملَ جسدُ هذا الشابِّ لتثبيت العرش المتهاوي، يُستعمَل ما تبقَّى من هذا الجسد لتنظيف ما تبقَّى من العرش.

الدكتاتور وعائلته لا يُفوِّتون شيئاً: الأجساد القوية للقتال، أمَّا العاجزة فللدعاية.



***

نكاد نجزم بأنه لم يسبق أبداً لهذا الشابّ الـمُقعد، بإصابة حربٍ، أن ارتدى في قدمَيْه حذاءً رياضياً من ماركة «أديداس» الباهظة الثمن.

نكاد نجزم بذلك، بسبب معرفتنا بحالة الفقر المدقع للعساكر العاملين في صفوف جيش الأسد. فحال هذا الشابِّ

لن يكون أفضل من حال أقرانه من المقاتلين الذين لم يخلعوا البوط العسكري منذ سنواتٍ، إلَّا في إجازاتهم القصيرة لارتداء «خفَّافة صينية» أو حذاء محلِّي رديء الصنع.

لزوم الدعاية يقتضي مظهراً لائقاً للجندي الـمُقعد. لزوم استخدامه في صورةٍ مع الدكتاتور وزوجته (الأنيقة) يقتضي لباساً أنيقاً. الدعاية للدكتاتور زيٌّ من أزيائه، لذلك ينتقيها بعناية فائقة.

للمرَّة الأُولى سيظهر هذا الشابُّ بثيابٍ لا تكفي رواتبه، طوال سنةٍ كاملةٍ، لشرائها.

للمرَّة الأُولى -والأخيرة طبعاً- سيُتاح لهذا الشابِّ أن تختار ثيابَه سيِّدةٌ تنتمي إلى عالم الماركات ومتابِعةٌ خبيرةٌ لآخر صيحات الموضة في عواصم الغرب.

***

لو كان الشخص الذي يدفع الكرسي في الصورة والد هذا الشابِّ أو أحد أقربائه وأصدقائه، لكانت صورةً عاديةً لا تحتمل كتابة تعليقٍ مُطوَّلٍ.

لكنَّ الذي يدفع الكرسي هو الشخص المتسبِّب بالإعاقة. هو الشخص الذي سلب الشابَّ الجالس القدرةَ على الوقوف أو المشي.

بثيابِ ضحاياه يتنكَّر القاتل. يتنكَّر بإعاقاتهم أيضاً. ببؤسهم وضياع أعمارهم.

أجيالٌ سوريَّةٌ كاملةٌ باتت تجلس على كرسي متحرِّك، ولا تجد من يدفع كرسيَّها إلَّا القهر والإهمال والموت البطيء.

أجيالٌ مُقعدةٌ لا تعرف من الأزياء إلا الزيّ العسكري، وحين تُهدى حذاءً رياضياً من ماركة شهيرة، فإنما لقدمَيْن مشلولتَيْن.

موقع «زمان الوصل»، **19** آب **2019**

إعلانات «المجاهدين»

«تبًّا للديموقراطية»، لافتةٌ من سلسلة لافتات سوداء تحمل معانيَ متقاربةً، نَصَبَها الذين أطلقوا على أنفسهم لقب «إخوانكم المجاهدين» في المنطقة التي كانوا يسيطرون عليها، وجعلها جنود



النظام مقصداً لالتقاط صور «السيلفي»، كما جعلتها صحافة النظام مادَّتها الفُضلى.

بالطبع، لافتةٌ كهذه يمكن أن تُقرأ بسهولة: «تبّاً للثورة»، ما دام أنها لا تكتفي بتكفير ملايين السوريين الذين أعلنوا ثورتهم من أجل هذه الديموقراطية «الـمَتْبُوبة»، بل تتعدَّى ذلك إلى تكفير علَّة قيام الثورة من أساسها.

إنَّ لَعْن علَّة قيام الثورة ومبرِّرها -أي الديموقراطية- هو، أوَّلاً، فعلُ لعنٍ لشهداء هذه الثورة، ولمشرَّديها، وللمختفين قسراً، وللمظاهرات التاريخية التي أشعلت أحلام السوريين ببلدٍ ديموقراطي وحديث.

لقد دوَّنَ «المجاهدون» في هذه اللافتة، ومثيلاتها، كلَّ ما يسعى النظام إلى تنفيذه. فما امتنع عن المجاهرة به بشكلٍ رسميٍّ، جعلوه لافتاتٍ شاهدها، مترجمةً بمختلف لغات الدنيا، العالمُ أجمع.

لقد لخَّصوا، بوضوحٍ، جوهر النظام الاستبدادي في مسألة عدائه للديموقراطية. لاقوه إلى منتصف الطريق وقالوا له: نحن أدواتكَ التي تحمل مُسمَّيات أعدائك.

بدتْ لافتاتهم السوداء هذه شبيهةً جداً، في فاعليتها، بالإعلانات التجارية التسويقية مدفوعة الثمن.

كانت أكبر حملة تسويق دعائية لنظام الأسد -لدى الرأي العام الغربي والعالمي- باعتباره، بين البدائل، الأقلَّ سوءاً. وأكبر حملة تشويه لثورة اللافتات البيضاء والملوَّنة باعتبارها ثورة إرهاب وأيديولوجية دينية.

وهكذا، بين لافتات ناصعة البياض حملها المتظاهرون المدنيون الأوائل، ولافتات حالكة السواد نَصَبتها جماعةٌ فَقَدَ أفرادُها إحساسهم بتعاقب الزمن وسير الحضارة والحداثة، عاش حلمُ الديموقراطية السورية الافتراضية حياةً قصيرةً شبيهةً بحياة أبطاله من الشباب السوريين الذين قضوا يافعين في سبيل تحقيقه.

تمعَّنوا في المفارقة الآتية: إنَّ الذي اغتال مهندس لافتات كفرنبل الشهيرة (التي لم تنشر صحافة النظام صورةً واحدةً لها) هو رافعُ لافتات «تبّاً للديموقراطية» (التي نشرتها صحافة النظام على صفحاتها الأُولى).

موقع «زمان الوصل»، **25** أيلول **2019**

انتحار على بوَّابة مقبرة

انتحارٌ على بوَّابة مقبرة. لو سمع أحدنا بهذه الجملة -قبل معرفته بحكاية الطفل السوري وائل السعود- لظنَّها عنواناً لفيلم تراجيدي، أو جملةً مفتاحيةً لرواية ملحمية.

فلا يمكن أن يخطر في بال المرء، عادةً، أنَّ طفلاً في التاسعة من عمره يستطيع أن يصنع -بجسده الضئيل- عنواناً بهذه الضخامة. لا يمكن أن يخطر في باله أنَّ طفلاً صغيراً في وسعه أن يتوجَّه إلى المقبرة ليشنق نفسه على بوَّابتها.

تعرَّض الطفل السوري اللاجئ وائل السعود إلى شتَّى أنواع التنمُّر العنصري في مدرسته التركية في ولاية كوجالي. كان السوري الوحيد في الصفّ، وقد وقع ضحيَّة تسلُّط المعلّم عليه -على الرغم من تفوُّقه الدراسي- وضحيَّة عداء زملائه في المدرسة الذين كانوا يُسمعونه يومياً أشدَّ العبارات عنصريةً، مطالبين إيَّاه بالعودة إلى بلده.

في يومه الأخير، بحياته القصيرة كبرقيَّةٍ، وبَّخه معلِّمه لسببٍ

تافهٍ، وتوعَّده زملاؤه في الصفِّ بالويل إذا عاد إلى مدرستهم.

لم يكن في وسع الطفل العودة إلى سوريا مثلما طالبه زملاؤه، كما لم يكن في وسعه فهم حملة الكراهية المنظَّمة التي تجتاح تركيا ضدَّ اللاجئ السوري.

المكان الوحيد الذي كان قادراً على الذهاب إليه في ذلك اليوم هو المقبرة. وقد اختار بوَّابتها ليربط بحديدها الحبلَ الذي اختلط معناه، في اللحظات الأخيرة، بين كونه حبلَ موتٍ وكونه حبلَ نجاةٍ.

في سنواته التسع لم يخترْ هذا الطفل شيئاً بنفسه، لا اللجوء ولا المدرسة ولا الرفاق. اختياره الأوَّل في حياته كان باباً لمقبرة، وحبلاً وجدَ التعلُّق به خيراً من التعلُّق بحبال حياةٍ جَلْببها الذلُّ والهوان.

الأطفال السوريون الذين تناقلت الأخبار مآسي مذبحتهم في الحرب طوال السنوات الفائتة، خرج من بينهم طفل اسمه وائل السعود قرَّر أن يضع حدَّاً لحياته بنفسه. لقد نفَّذ رغبةَ أقرانه في المدرسة حين طالبوه بالعودة إلى بلده سوريا، فذهب إلى أكثر الأمكنة شبهاً بذلك البلد: ذهب إلى المقبرة!

موقع «زمان الوصل»، **6** تشرين الأوَّل **2019**

انتحار الصقر

بعد قيام «الأمن العام» في لبنان بتسليم 5 سجناء سوريين معارضين إلى نظام الأسد، وصلني خبرٌ يفيد بأنَّ بقية السجناء السوريين المهدَّدين بالتسليم قاموا بتعليق مشانقهم احتجاجاً، وأنَّ اثنَيْن منهم قاما بشنق نفسَيْهما فعلاً.

***

حكايات كثيرة طالما سمعتها في طفولتي عن بعض الطيور الجارحة، منها اثنتان أثَّرتا بي كطفلٍ، وقتذاك، وألهبتا عاطفتي:

الأُولى أنَّ الصقر إذا وضعته في قفصٍ يقوم بقتل نفسه. بل يقال إنَّ الصقر ما أن يتمَّ اصطياده حتى تتسارع ضربات قلبه ويحاول الانتحار. ولذلك دأب الصيَّادون على طمر جسد الصقر -فور أسره- في التراب، مع إبقاء رأسه خارجاً، ورشّ الماء حوله حتى يعتاد واقعه الجديد.

والثانية أنَّ النسر حين يصل إلى آخر العمر يقوم بالتحليق إلى أعلى ما يستطيعه، ثمَّ يطوي جناحَيْه تاركاً جسده ليهويَ من عليائه،

في سقوطٍ حرٍّ، نحو حتفه المحتوم.

بالطبع، ما يجمع بين الحكايتَيْن ليس الانتحار فحسب، وإنما «الكرامة» إذا جاز لنا إطلاق هذه الصفة الإنسانية على طائرَيْن. فالصقر ينتحر حين تُسلَب منه حرِّيته، والنسر ينتحر حين تُسلَب منه قوَّته.

إنَّ الكرامة، بهذا المعنى، تكاد أن تكون شأناً غريزياً لدى بعض الحيوانات، فكيف لا تكون كذلك لدى بعض البشر!

***

السجناء السوريون الذين علَّقوا مشانقهم بأنفسهم، عادوا إلى غريزتهم واستهدوا بوحيها، كما تفعل الصقور والنسور.

ما تبقَّى لهم من كرامةٍ إنسانيةٍ لن يغامروا به في مكان معادٍ للكرامة الإنسانية.

لقد سجنهم حلفاءُ الأسد في لبنان لأسباب سياسية بحتة، وها هم يبدأون بتسليمهم إلى سجونٍ ربما لن يتسنَّى لهم فيها ظهور «قيصر» آخر يقوم بتسريب صور تعذيبهم.

ولأنه سبق لي أن عشتُ حالةً مماثلةً لهذه الحالة، قبل سنوات من الثورة، حيث سُجنتُ لدى «الأمن العام» في لبنان بنيَّة تسليمي إلى نظام الأسد، أفهم ما يشعر به الذي فضَّلَ الانتحار على الوقوع

في يد جلَّاد سادي ومريض.

أفهم كيف يكون الموتُ خياراً منطقياً ومُقنعاً في محطَّةٍ حاسمةٍ من حياة الإنسان.

وأفهم كيف ينبت للسجين -في لحظةٍ معيَّنةٍ- جناحا صقر يطيرٍ بهما إلى حبل المشنقة.

موقع «زمان الوصل»، **15** تشرين الأوَّل **2019**

سيلفي نوح زعيتر

سنة 2007، وبالقرب من مكان عملي في بيروت، التقيتُ صدفةً أحد صحافيي جريدة «الأخبار»، فبادرني بالقول إنه مسافر إلى سوريا. ثمَّ سألني ضاحكاً -لأنه يعرف لا أستطيع دخول بلدي- إذا ما كنتُ أرغب بشيءٍ يجلبه لي من هناك؟!

لقد كان ذلك السؤال أقسى مزحةٍ تلقَّيتُها في حياتي.

***



عاودتني هذه الذكرى القاتمة، اليوم، وأنا أُطالع صورة السيلفي التي التقطها تاجر المخدِّرات اللبناني الشهير نوح زعيتر لنفسه في ساحة الأمويين بدمشق.

نُصْبُ السيف الدمشقي الشهير، الذي ظهرَ خلفيةً لتاجر المخدِّرات، كأنما كان يقول بأنَّ المعالم التاريخية في بلادنا باتت الخلفية المفضَّلة لدى كبار المجرمين لالتقاط صورهم.

للحظةٍ، وقد فاضت الصورةُ برمزيتها الموجعة، تحوَّل نُصْب السيف إلى سيفٍ حقيقيٍّ شقَّ قلبي وقلبَ كلِّ وطنيٍّ سوريٍّ حُرِمَ من دخول بلده ليُملأ مكانُه بشذَّاذ الآفاق.

فكَّرتُ: كيف أُمنع، أنا الشاعر، من دخول بلدي منذ 18 عاماً، بينما يُسمح لتاجر مخدِّرات غير سوري أن يصول ويجول، ويكون موضع احتفاء أيضاً؟!

فكَّرتُ بأنَّ سيلفي نوح زعيتر ليست سيلفي شخصية على الإطلاق، بل سيلفي وطن بأكمله.

ولكنْ، هل ما بقيَ من سوريا يصلح، فعلاً، لأن نُطلق عليه مُسمَّى «وطن»؟

بل هل يحقُّ لنا الغضب من صورة تاجر مخدِّرات يقف أمام مَعْلَم وطنيّ، عندما يكون ساكن قصر الرئاسة على جبل قاسيون

سفّاحاً أكثر ضِعَةً وخسّةً؟!

الحقّ أنَّ سيلفي نوح زعيتر هي أصدق صورة لسوريا في ظلِّ حكم العائلة. إنها سيلفي لبشار الأسد نفسه وقد استُبدل نُصْب السيف من ورائه بشبحِ أبيه.

موقع «زمان الوصل»، **30** كانون الأول **2019**

برجٌ من أنقاض المنازل

يوم كتبتُ في قصيدةٍ سابقةٍ: «سمّوا الصواريخ بأسماء/ الذين بنوا أبراجهم/ من حجارة بيوتكم المهدَّمة»، كنتُ أقصدُ المجازَ، ولم يخطر في بالي أن يقوم أحد هؤلاء، فعلاً، بإقامة احتفالٍ علنيٍّ لافتتاح برجٍ في إسطنبول!!



فعندي أنَّ المنطق يفترض أن يحاول أمثال هؤلاء الاستتار. ولكنَّ كلَّ مَنْ شاهد فيديو الاحتفال بافتتاح المطعم البرجيّ المسمَّى «إيوان» (5 طوابق بتكلفة ناهزت ملايين الدولارات)، بحضور صاحبه محمد علُّوش،

القيادي في «جيش الإسلام» وأحد المسؤولين عن تسليم الغوطة الشرقية لنظام الأسد، لا بدَّ أن يُغيِّر رأيه.

إنَّ وضع صورتَيْن، أُولى للاحتفال الباذخ وثانية للنازحين الغائصين في وحول الشتاء، بشكلٍ متقابلٍ، يقول الكثير عن انعدام الحياء الذي اتَّصفتْ به مجموعةٌ كاملةٌ شاءت لها أجندات الدول أن تتصدَّر المشهدَ الثوريَّ.

من رأى واجهة المطعم البرجيّ، بعينَيْن سوريتَيْن، لا يمكنه إلا أن يرى الصور الشهيرة لجائعي الغوطة الشرقية وقد تراءت على زجاج الواجهة.

بل لا يمكنه إلا أن يرى أشباح الأطفال، الذين طالما تناقلت وكالات الأنباء صورَ ضلوعهم التي برزت بسبب الجوع، وهي تطوف مع صواني الضيافة التي تهافت عليها حشدٌ من السوريين لا أظنُّهم يزيدون صاحبَ المطعم بنسبة الحياء.

ربَّما كان التظاهر ضدَّ هذه المصالح التجارية أَوْلى من التظاهر ضدَّ حفلات مطربي النظام. وربَّما كان تخريب احتفال «إيوان» في تركيا عملاً أعمق وأجدى من تخريب حفلة علي الديك في ألمانيا.

فالرسالة إلى خونة الثورة وتجَّارها باتت أكثر إلحاحاً من الرسالة إلى شبِّيح هنا وشبِّيح هناك، طالما أنَّ التخريب الذي طال الثورة من

داخلها أكبر وأخطر بكثير من التخريب الذي طالها من خارجها.

إنَّ خمسة طوابق بُنيتْ من أنقاض المنازل، وصوانيَ ومناسفَ تعرَّمتْ من مجاعات الناس، ومناطقَ بأكملها تمَّ بيعها ليُفتتح بثمنها مصالح تجارية... لهي أمورٌ لا يسكت عنها إلا شريك أو متواطئ.

فليبدأ السوريون المتضرِّرون برفع الدعاوى أمام المحاكم التركية، وأمام المحاكم في أي دولة افتُتحتْ فيها مثل هذه المصالح التجارية المشادة على ركام عذاباتهم، وليُشكِّل نساء ورجال القانون الأحرار فريقاً متخصِّصاً لمقاضاة هؤلاء ومصادرة أموالهم المنهوبة لصالح غوث اللاجئين، لتكون هذه بدايةً جديدةً لإعادة تعريف الثورة وفهمها وتنزيهها.

موقع «زمان الوصل»، **5** كانون الثاني **2020**

منتحرو «جسر السيِّد الرئيس»

منذ افتتاحه سنة 1992، لم يستحقّ «جسر السيِّد الرئيس حافظ الأسد» اسمَه كما هو يستحقُّه اليوم.

ففي الأسابيع القليلة الماضية تحوَّل هذا الجسر إلى ما يشبه المنصَّة للانتحار. أربع حالات، على الأقلّ، تمَّ تسجيلها لشباب يائسين -ومن الجنسَيْن- ألقوا بأنفسهم من فوق هذا الجسر.



اليأس، المقوَّى بجرعاتٍ كبيرةٍ من البؤس الذي خلَّفته الحرب، بات يُزيِّن للشباب فكرة الخلاص الفردي.

وفي بلدٍ لا يفهم سكَّانه حتى اليوم سبباً وجيهاً لعدم وجود أبراج في مُدُنه، يصبح مثل هذا الجسر خياراً «مثالياً» للانتحار، بعدما كان قد تحوَّل إلى نقطة تجمُّع للمشرَّدين في العاصمة دمشق.

«جسر السيِّد الرئيس»، كما يُعرَف اختصاراً، صار بالنسبة إلى السوريين المسحوقين جسرَ عبورٍ نحو الموت. وقد كان حافظ الأسد نفسه جسرَ عبور البلاد نحو الخراب والحرب الأهلية، حين أسَّسَ نظاماً دموياً قوامه العَصَبيَّة (الطائفية)، وربطَ استمراره باستمرار وجود صواعق التفجير الأهلي في المجتمع السوري.

إنَّ اسماً كاسم حافظ الأسد، الذي رسخَ عنواناً عريضاً للموت طوال حقبة كاملة في تاريخ سوريا، لا يمكنه الخروج من جِلْده حتى لو تمَّ إطلاقه على منشأة ذات رمزية إيجابية كالجسر.

بل إنني عندما طالعتُ صور بعض الجثث المدمَّاة للمنتحرين، تخيَّلتهم لا يلقون أجسادهم من على حافَّة الجسر، بل من على كتف حافظ الأسد. تخيَّلتهم يقفون على تلك الكتف وحافظ يدفعهم بيده نحو السقوط، تماماً مثلما دفع البلاد من قبل.

موقع «زمان الوصل»، **19** كانون الثاني **2020**

وجوه الطائرة الليبية

الشريط المصوَّر الذي أظهرَ العشرات من عناصر ما يُسمَّى «الجيش الوطني» وهم يستقلُّون طائرةً متجهةً صوبَ ليبيا للقتال إلى جانب قوَّات «حكومة الوفاق» ضدَّ قوَّات الجنرال خليفة حفتر، يفطر القلب.

وفي حين أنه أثار غضبَ وحنقَ غالبية المثقَّفين الثوريين، أثار هذا الشريط حزني وكَمَدي.



فباستثناء فئةٍ من المقاتلين الذين جاهروا بارتزاقهم أمام الكاميرا، أظهر الفيديو المذكور الكثير من العناصر وهم يحاولون إخفاء وجوههم كي لا تلتقطها الكاميرا: بعضهم أدار وجهه نحو النافذة، وبعضهم استعمل يده أو ذراعه، وبعضهم طأطأ رأسه إلى أن

لامس ظهرَ المقعد الذي أمامه.

لقد مثَّلتْ تلك الثواني الأليمة في الفيديو اعترافاً صريحاً منهم -وبأكثر الطرق إذلالاً- بأنَّ ما يفعلونه لهوَ أمرٌ مُشينٌ.

كان تهرُّبهم من عين الكاميرا هرباً من أعين السوريين الذين سيشاهدون الفيديو وربَّما يتعرَّفون على أصحاب تلك الوجوه.

كان إخفاء الوجه محاولةً حزينةً لإخفاء العار، أو محاولةً يائسةً ليقولوا إنهم ليسوا مرتزقةً بل حفنةٌ من الشباب الذين تقطَّعت بهم سُبُل العيش بعدما تقطَّعت بهم سُبُل الثورة.

وما يزيد من فداحة مأساة هؤلاء، الذين نقلتهم الطائرة الليبية ليس بين بلدَيْن فحسب (سوريا وليبيا) بل بين لقبَيْن أيضاً (ثائر ومرتزق)، أنه يوجد بينهم من خسر بيته وأرزاقه وبعضاً من أفراد أسرته خلال الثورة. وها هو اليوم يخسر نفسه بعدما قَبِلَ تأجير بندقيته لمن يدفع.

لذلك قلتُ بأنَّ الفيديو الذي أثار الغضب، حريٌّ به أن يُثير الحزن أوَّلاً. حريٌّ به أن يجعلنا ننظر إلى هؤلاء كضحايا فشلٍ سوريٍّ عامّ، وفشلٍ ثوريٍّ خاصّ في إنتاج قيادة وطنية للثورة في حدودها الدنيا.

وبالطبع، فإنَّ كلامي هذا لا يعفي الذين قبلوا التكسُّب ببنادقهم

من مسؤولياتهم، ولا ينزع عنهم صفة الارتزاق.

ولكني أردتُ، فقط، أن ألفتُ النظر إلى أننا لا نستطيع تنزيه ذواتنا بمجرَّد رجم الذين ظهروا في فيديو الطائرة الليبية والتبرُّؤ منهم، ما دام حال الثورة التي ما زلنا نرفع رايتها لم يعد أفضل بكثيرٍ من حال هؤلاء.

موقع «زمان الوصل»، **25** كانون الثاني **2020**

صخور بين البطّانيات

يترك الهاربون من الموت كلَّ ما ثَقُلَ حَمْلُه. حتى الثمين من الأغراض يتركونه، ليفسحوا المكان الضيِّق في سيَّاراتهم الصغيرة للحاجيات الضرورية جداً من بطّانيات وأفرشة إسفنجية وملابس شتوية بات مُقدَّراً لها أن تبذل جهداً مضاعفاً في ظلِّ نقص الخيام التي صارت حلماً بعيد المنال للكثير من العائلات المهجَّرة والمقيمة في العراء.

في الآونة الأخيرة، راحت تتسلَّل بين تلك الأغراض الخفيفة جداً والضرورية جداً بعضُ الصخور الثقيلة غير الصالحة للاستعمال في شيء: ألواح رخامية لا يمكن لمن لا يجيد القراءة باللغة العربية أن يفهم سبباً يدفع هارباً من الموت إلى أخذها معه.

هيَ شواهد قبور الأحبَّة التي راحت بعض العائلات تصطحبها معها في رحلة التهجير الطويلة.

هيَ شواهد قبور الذين يعيشون حياتهم الثانية في قلوب عائلاتهم.

إنَّ أُمَّاً وأباً يحملان شاهدة قبر ابنهما الشهيد سيقولان لك بأنَّ هذه الشاهدة هي وسيلة تدفئة أيضاً. إنها موقد من نوع خاصّ. إنَّ الجلوس بقربها يبعث حرارةً فائضةً في القلب، وإنَّ لمس حروفها المحفورة في الرخام، بين فينةٍ وأُخرى، هي كمن يرمي حطباً في النار.

سيقول الأخُ والأختُ إنَّ شاهدة قبر أخينا هي بطانية دافئة للروح في هذه الرحلة الصقيعية نحو المجهول.

وسيقول الابنُ والابنةُ إنها ما تبقَّى من الحضن الدافئ لأبينا.

هكذا، وفقط من هذه الزاوية، يستطيع منظرُ الشاهدة الصخرية الباردة، وسط البطانيات الدافئة، أن يغدوَ أكثر منطقيةً.

موقع «زمان الوصل»، **13** شباط **2020**

الاستعادة الرهيبة للأمكنة

أماكن كثيرة تغيب عن عين الإنسان في ترحاله وغربته، وتبقى مطبوعةً بصورتها القديمة في مخيِّلته وذاكرته. وحين تتاح له فرصة العودة إليها ثانيةً، لمعاينتها، لا بدَّ أن تراوده أمنيةٌ بأن تكون تلك الأماكن قد بقيت على حالها دون أن يمسَّها أيُّ تغيير.

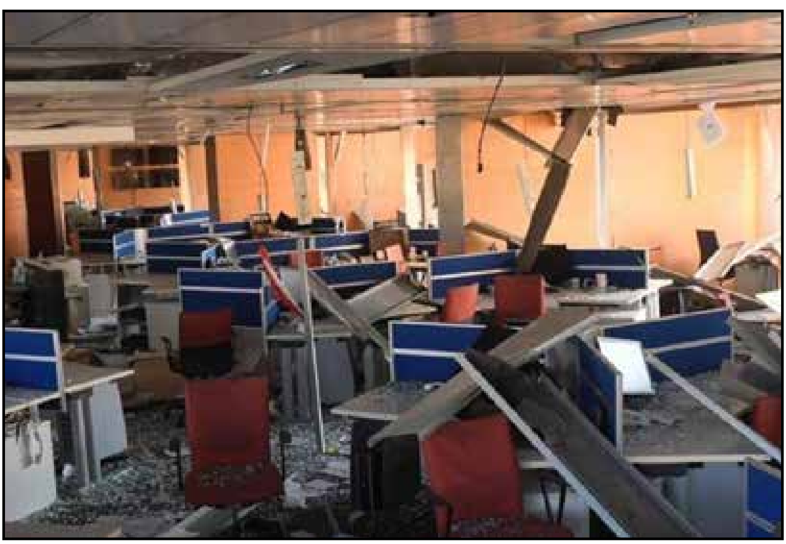
فبعد أن يعيش الإنسان جزءاً من حياته في مكانٍ ما، يعيش



ذلك المكان، بدوره، جزءاً من حياته في ذاكرة ذلك الإنسان.

إنَّ آخر ما يرغب به شخصٌ قد عاد إلى مدرسة الطفولة، أو إلى مسقط الرأس، أو إلى مكان العمل القديم، بعد غيابٍ، أن يرى تلك الأماكن وقد تغيَّرت بشكلٍ يمنع مطابقتها مع صورها المحفوظة في الذاكرة. حتى الشجيرة التي غادر المنزل وهي لـمَّا تزل صغيرةً لا يرغب بأن يراها وقد صارت شجرةً عملاقةً، لأن عاطفته التي سمَّنتها الغربة قد التصقت بالتراب أكثر فأكثر، ولم يعد في مقدورها تسلُّق تلك الشجرة التي كبرت في غيابه.

في سوريا التي غادرتُها قسراً سنة 2002، وفي لبنان الذي



غادرتُه قسراً سنة 2008، أماكن كثيرة غابت عن عيني لسنواتٍ طويلةٍ، دون أن تتاح لي أيُّ فرصةٍ للعودة إليها ومعاينتها مجدَّداً.

لكنَّ الشرَّ العميم، الذي ضرب سوريا ولبنان معاً، قذفَ تلك الأماكن في وجهي في غفلةٍ من الزمن ومنِّي.

مدرستي الثانوية في مدينة الشدَّادي، والتي تحوَّلت صفوفها إلى خرابٍ، تعثَّرتُ بصورتها على صفحة في «فيسبوك».

والمكتب الذي عملتُ فيه، طوال سنوات، في جريدة «النهار»، تعثَّرتُ بصورته أيضاً، وقد تحوَّل إلى خرابٍ بعد الانفجار الرهيب في مرفأ بيروت.

الصور الجميلة لهذين المكانَيْن، صفِّي المدرسي ومكتبي الصحافي، والتي احتفظتُ بها طوال السنوات الماضية في ذاكرتي، تعرَّضتْ للتمزيق والبعثرة فجأةً، بحيث سالت دموعي ممزَّقةً ومبعثرةً أيضاً.

بين تلك المقاعد المحطَّمة أكاد أرى شبحاً لطالب يحمل اسمي ولوني وصفاتي، يحاول تنظيف المكان وترتيبه دون جدوى.

وبين تلك المكاتب المحطَّمة أكاد أرى شبحاً لصحافي يحمل اسمي ولوني وصفاتي، يحاول تنظيف المكان وترتيبه دون جدوى.

لقد غادرتُ تلك الأمكنة إنساناً، وعدتُ إليها شبحاً.

موقع «زمان الوصل»، **10** آب **2020**

جدائل للبيع

نظرةٌ واحدةٌ على الصور التي تعرضها بعضُ السوريَّات لشعورهنَّ وضفائرهنَّ المقصوصة بهدف بيعها، تكفي لمنح القوَّة لذلك المقصِّ، الذي لا يظهر في تلك الصور، ليصل إليك ويقصَّ شيئاً من أطراف روحك.

لن تهتمَّ بهُويَّة صاحبة الشَّعر، سواء أكانت امرأةً مواليةً أم فتاةً معارضةً، لأنَّ ثقل الأسى سيسحق المنطق الذي تفكِّر فيه، كما أنَّ المقصَّ ذاته الذي لا تراه، وبعدما ينتهي من قصِّ الجديلة سيتابع طريقه نحو السيرة الذاتية لصاحبتها، ليُحيلها مزقاً صغيرةً لا تنفع حتى للتعرُّف إلى المنطقة التي تنحدر منها تلك المرأة.

في الصور المعروضة للشَّعر المقصوص، ولسببٍ مجهولٍ يشغل بالي كلُّ ما هو غائب؛ من المقصِّ إلى وجه صاحبة الشَّعر (يشغل بالي الغائبون دائماً). تشغلني الدموع التي لا تُظهرها الصور. الأنوثة التي فُرِشتْ على الشرشف مع شريط قياس. والوجع الذي لا يُحسَب حسابه عند تقدير السعر.

لا تعرف ما الذي سيُشترى بثمن الشَّعر المعروض للبيع: الدواء أو مازوت التدفئة أو حتى الطعام؟ لا تعرف ما الذي يجدر به أن يكون ثمناً لتخلِّي امرأةٍ عن شَعرها.

للحظةٍ تصبح الجديلةُ المقصوصةُ صورةً للأسى السوريِّ وقد اتَّخذ لوناً ولمعةً وتموُّجاتٍ.

للحظةٍ تترقرقُ الخصلةُ المعروضةُ إلى أن تصبح دمعةً مستطيلةً لألمٍ مستطيلٍ.

تبيع النساء السوريَّات جدائلهنَّ، ويبيع شبَّانٌ سوريون كُلاهم. صار بيع الكُلية خياراً مقبولاً لدى الشباب الذي لم تُتحْ له الحياة، يوماً، حقَّ أن يختار شيئاً.

وفي هذه السوق التي يبيع فيها الناس أعضاءَهم فُرادى، وتُباع فيها البلاد جملةً، كأني بالواقف على القارعة وقد أخذ ينادي: جدائلُ للبيع، كُلى للبيع، بلادٌ للبيع...

موقع «زمان الوصل»، **20** آذار **2021**

معتقلات الخبز

بعدما جرَّب السوريون شتَّى أنواع المعتقلات وأشكالها، ها هم يُجرِّبون اليوم نوعاً جديداً وشكلاً جديداً: معتقلات الخبز!

كلُّ منشأة في «سوريا الأسد» هي كناية عن مشروعٍ ما لمعتقلٍ ما.

في مطلع الثورة تمَّ إلغاء مباريات كرة القدم لأن أجهزة



المخابرات حوَّلت الملاعب إلى معتقلات جماعية. وحتى بعض صالات الرياضة، وبعض صالات الأفراح، تمَّ تحويلها إلى معتقلات.

الصورة المرفقة، للوهلة الأولى يظنُّ الناظرُ إليها بأنها تنتمي إلى مجموعة صور «داعش»، حيث الأقفاص التي يُوضع فيها الناس قبل أن يتمَّ إحراقهم بالنار أو إغراقهم في نهر الفرات كما سبق للتنظيم أن فعل بخصومه ومخالفيه.

ولكن ما إن نقرأ الكلام المرافق للصورة حتى نعرف بأنها أقفاص وُضِعَتْ أمام بعض الأفران في دمشق بحجَّة تنظيم الدور!!

هذه الصورة لم ينشرها الإعلام المناهض لنظام الأسد، بل نشرتها وسيلةٌ إعلاميةٌ تتبع النظام نفسه! لا بغرض النقد والاستنكار، بل بغرض معرفة رأي الجمهور بما أسمته «الطريقة الجديدة لتنظيم الدور أمام الأفران»!! حيث نشرت إذاعة «المدينة أف أم» على صفحتها صوراً لتلك الأقفاص البشرية أمام أفران «ابن العميد» في دمشق، مروِّجةً لهذه «الطريقة الجديدة»، وطالبةً من متابعيها إبداء رأيهم فيها: «كيف تصف هذه الطريقة؟ وهل سبق لك أن جرَّبتها؟»!!

أمَّا التبرير الرسمي لكلِّ هذا الاحتقار لكرامة الإنسان السوري فقد جاء على لسان مدير مخابر دمشق، نائل اسمندر، الذي قال بأنها

«طريقة جديدة لتنظيم الدور (...) لأن ثقافة الدور غير موجودة في بلادنا»!!

إنَّ نظام الأسد لا يجد بأن المشكلة تكمن في فقدان مادَّة الخبز، بل يجدها في فقدان «ثقافة الدور»! جوع الناس ليس المشكلة بالنسبة إليه، بل عدم انضباطهم!

لقد تحوَّل السوريون المقيمون في مناطق سيطرة الأسد إلى شعبٍ من الطوابير؛ أمام الأفران وأمام محطات الوقود وأمام المؤسَّسات الاستهلاكية... ولو بقيَ سفارات أجنبية في سوريا لكانت قد شهدت أطول تلك الطوابير على الإطلاق.

سياسة إهانة الإنسان في كرامته (حتى كرامته المعيشية البسيطة) تمَّ اجتيازها نحو سياسة التفنُّن في صنع الإهانة. فالمواطن الـمُهان لم يعد مرغوباً فيه ما دامت الإمكانية موجودة لصنع المواطن الـمُهان في حدوده القصوى.

وفي مقابل المشهد الحالي لأفران المناطق التي يسيطر عليها النظام، لا بدَّ أن يتراءى لنا المشهد السابق لأفران مناطق الثورة. فمن يبحث في أرشيف سنة 2012، وحدها، سيجد بأنه قد قضى خلالها أكثر من ثلاثمئة شخص، إضافة إلى أكثر من ألف جريح، جراء قصف طائرات الأسد لتجمُّعات الناس أمام الأفران.

ما يزيد عن ثلاثين استهدافاً للأفران في ذلك العام (فرن حلفايا وفرن تلبيسة وفرن البصيرة وفرن الحميدية وفرن حي عشيرة... إلخ)، خلَّف مجازرَ ومناظرَ رهيبةً لأشلاء الناس وقد صَبَغت أرغفةَ خبزهم بالدماء.

وهكذا حتى ليبدوَ بأنَّ الفرن السوري لم يعد قادراً على إنتاج سوى نوعَيْن من الخبز: خبز مغمَّس بالدم خارج مناطق سيطرة الأسد، وخبز مغمَّس بالذلِّ داخل مناطق سيطرته.

موقع «أساس ميديا»، 6 تشرين الثاني 2020

سوق لبيع القلوب في سوريا!

من على أثير إذاعة «المدينة أف أم» الموالية، قال أحدُ المتصلين بأنه يعرض قلبه للبيع من أجل ألَّا يجوع أطفاله!!

لم يكن ذلك المتصلُ الوحيدَ الذي قدَّم هذا «العرض» المروِّع. آخرون، قبله وبعده، فعلوا ذلك.

سوق بيع الكُلى في سوريا شارف على الكساد، بسبب كثرة المعروض وهبوط السعر إلى أقلّ من خمسة ملايين ليرة للكلية الواحدة (حوالى 1500 دولار بحسب تصريف اليوم، ويمكنه أن ينخفض إلى نصف القيمة صباح الغد أو بعده بسبب الانهيار المتسارع للعملة السورية).

في مقال سابق، كتبتُ متأثِّراً عن بيع النساء السوريات لشعورهنَّ وجدائلهنَّ، وبيع الشبَّان السوريين لكُلاهم. اليوم أكتب عن بيع السوريين لقلوبهم!

لسنا متأكِّدين، حتى الآن، من أنَّ أحداً قد باع قلبه فعلاً. لسنا متأكِّدين من أنَّه ثمَّة شخصٌ قبضتْ أُسرته مالاً مقابل أن يدخل إلى

غرفة العمليات ويغادر بعدها إلى المقبرة. لكننا متأكِّدون من جدِّية الذين يعرضون قلوبهم للبيع إنقاذاً لأُسَرهم وأطفالهم.

لم يبقَ أمام بعض الآباء والأمَّهات في سوريا من خيارٍ سوى أن يطعموا الأبناء من أجسادهم. حرفياً، لم يبقَ أمامهم سوى تحويل قلوبهم وأعضائهم إلى طحين وخبز وطعام.

إنَّ يأس الأب أمام نظرات أطفاله الجوعى أقسى بكثيرٍ من موته. وإنَّ خجله من بكائهم يجعل فكرة الموت بمقابل مادِّيٍ أقلّ الحلول ألماً.

لقد وصلنا إلى المرحلة التي نكتب فيها عن بيع الإنسان السوري لحياته. عن خجله من وجوده، أو خجله من كونه أباً عاجزاً عن إطعام أطفاله.

قبل أسابيع انتشرت صور لطفلتَيْن تركهما والدهما أمام «مشفى المواساة» بمنطقة المزَّة بدمشق مع ورقةٍ كتبَ عليها أنهما بحاجة ماسَّة إلى الطعام، مختتماً الرسالة بطلب السماح من الطفلتَيْن.

وقبل أشهر روت الممثِّلة هدى شعراوي حكايتها مع رجلٍ كان يقف في أحد شوارع دمشق عارضاً ابنته للبيع من أجل أن يُطعم بقيَّة إخوتها.

آباء يعرضون قلوبهم للبيع من أجل إطعام أطفالهم، وآباء

يبيعون واحداً من أطفالهم من أجل إطعام البقيَّة، وآباء يهربون تاركين الأطفال مع قصاصة ورقية ترجو العابرين إطعامهم وترجو المتروكين مسامحتهم.

أمثال هذه القصص المروِّعة، والتي ترقى إلى أن تكون مجازرَ وجدانيةً، باتت يومياتٍ عاديةً في حياة السوريين في مناطق النظام بعدما فقدتْ استثناءها، حيث المجاعة -التي تقترب يوماً بعد آخر من أن تأخذ معناها الحرفيّ- هي السائدة، وحيث امتهان الكرامة الإنسانية تفشَّى في كلِّ الأمكنة حتى بلغَ الأمعاء.

الأحاديث التي قرأناها في كتب التاريخ عن «مجاعة الشام» سنة 1915، وكان سببُها الحصار والجراد ومصادرة العثمانيين لجزء كبير من المحاصيل لإطعام جيشهم المشارك في «الحرب العظمى»، بدأنا نسمع عن أشباهها المخفَّفة في سوريا، بعدما رأينا أشباهها الثقيلة أثناء حصار جيش النظام لبعض المدن الثائرة (باستثناء الألوان، لا تختلف بشيء صور المجاعة في بلدة مضايا السورية عن الصور الشهيرة لمجاعة جبل لبنان التي التقطها إبراهيم نعوم كنعان أثناء الحرب العالمية الأولى).

وأثناء كتابة هذه السطور، صدر قرارٌ جديدٌ عن حكومة الأسد يقضي بتقليل حصَّة الخبز للسوريين، والتي كان قد جرى تقليلها،

سابقاً، مرّاتٍ ومرّاتٍ.

ومع كلِّ تقليلٍ لحصَّة الخبز، تتضاءل أحلام الإنسان السوري وتصغر وتصغر إلى أن تتَّسع لها أمعاؤه.

موقع «زمان الوصل»، **24** تمُّوز **2021**

المحتويات

صدر للمؤلِّف

في الشعر:

- الرسَّام (1999)
- ملحق الشعراء السرِّي (2001)
- قصيدة فاطمة (2004)
- العروس (2007)
- تمثال امرأة تتجرَّع السمّ (2008)
- حصاة في كُليتي اليسرى (2013)
- السوريون شجر (2017)
- قبورٌ صغيرة (2021)
- أطفال تأخَّروا عن موعد النوم (2021)

في السرد:

- لحظة وفاة الدكتاتور (2011)

في النقد الأدبي:

- محاكمة الشِّعر (2021)

في الثقافة:

- فضائح الآخرين (2021)
- المثقَّف القديم (2021)
- عند تقاطُعِ الفنِّ والسياسة (2021)

في السياسة:

- حكُّ الصدأ (2017)
- مفاتيح (2021)
- مواكبات فكرية للثورة (2021)
- الجانب الصامت من المأساة (2021)

في الفلسفة:

- حقائق من نوع خاصّ (قيد النشر)

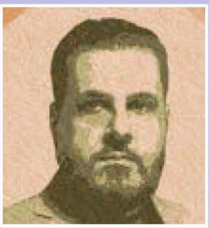
منشورات ماهر شرف الدين

هذا الكتاب

على أطراف المآسي الكبرى، غالباً ما تتشكَّل مآسٍ صغيرةٌ لا يلحظها الناس، أو بالأحرى لا تأخذ حيِّزاً كافياً من اهتمامهم بسبب انشغالهم المحموم بمتابعة ما يجري في مركز المأساة الأساسية.

وقد حدثَ أن تشكَّلت، على أطراف المأساة السورية، مآسٍ صغيرةٌ لا تُحصى، لم يستطع قلمي، الذي تابع الثورة لحظةً بلحظةٍ، ألَّا يتوقَّف عند بعضها. ولا أخفي بأنني، أثناء تناولها كتابةً ونشراً في الصحافة، كنتُ على إدراك تامّ بأنني أعمل على كتابٍ ذي طبيعة خاصَّة يحاول تغليب الجانب الإنسانيّ على الجانب السياسيّ، أو بالأحرى تخليص المأساة من مادَّتها السياسية والإبقاء على المادَّة الإنسانية فيها.

لذا يمكن القول إنَّ هذا العمل هو محاولة لإفساح المجال للجانب الصامت من المأساة لكي يأخذ حقَّه في الكلام، أو على الأقل لكي تُتاح له الفرصة لجمع أجزائه المتناثرة بين دفَّتيْ كتابٍ.



شاعر وكاتب سوري من مواليد 1977. كتبَ في السيرة والنقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والسياسة.

ISBN: 978-0-9995375-5-8